الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الإسلام والحضارة الغربية.. صِدام أم وئام؟

د. جواد بشارة
باريس

لقد وجد التيار الإسلاموي التربة الخصبة والملائمة لانتعاشه بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإستراتيجية التي كانت سائدة لعدة عقود والتي تسود اليوم متمثلة بطغيان العولمة والأحادية القطبية والأزمة الشرق أوسطية المستعصية على الحل وتفاقم الأوضاع المعيشية البائسة في العالم الإسلامي وارتفاع معدلات الفقر والأمية والتمايز الاجتماعي والطبقي بين أقلية غنية محتكرة للثروة ومستأثرة بالسلطة، وأقلية مسحوقة وضعيفة ومهمشة تترنح تحت ضغط الأمر الواقع المفروض عليها. لذلك اعتقد بعض المحللين والمراقبين الدوليين أنه بمجرد وصول الحركات الإسلاموية. السياسية إلى سدة الحكم وسيطرتها على أجهزة الدولة، لاسيما القمعية منها، في العالمين العربي والإسلامي، فإن القادة الإسلامويين المتشددين والمتطرفين والمتعصبين سوف يستخدمون وبلا تردد ما بحوزتهم من ترسانات وأسلحة تدمير شامل وأسلحة تقليدية متطورة وفتاكة وأسلحة نووية وبيولوجية أو جرثومية وكيمياوية كلما شعروا أن الظروف الدولية تتيح أو تبرر لهم ذلك حسب قراءتهم للوضع الدولي الاستراتيجي وحالة توازن القوى وحساباتهم الداخلية. ولو وقعت المواجهة المرتقبة التي يتمنونها بين الغرب والعالم الإسلامي فسوف يتسع مداها وتنتشر كالنار في الهشيم وفق مبدأ ظاهرة الدومينو وستجر وراءها العالم بأسره إذ من المحتمل أو المتوقع أن تضطر الصين للدخول في حرب ضد الغرب متحالفة ولو تكتيكياً مع العالم الإسلامي بينما ستصطف دولة كالهند إلى جانب الغرب بالرغم من وجود أقلية إسلامية بين صفوف شعبها تعد بالملايين، بسبب الخصومة التاريخية القائمة بين الصين واليابان حليفة الغرب المخلصة. هذه هي اللوحة الكارثية التي رسمها زبيغنيو بريجينسكي في كتابه الاختيار. أما موقف روسيا فمازال غامضاً نظراً لمجاورتها لعدد كبير من الدول الإسلامية كما أن لديها أقليات إسلامية نشطة لم تنجح في ترويضها كما توجد لديها معضلة الشيشان التي ستجبرها شاءت أم أبت على الإنزلاق في أتون الحرب العالمية القادمة.

من هنا فإن العالم يعيش اليوم، في مطلع القرن الواحد والعشرين، تحولاً جذرياً تحكمه اعتبارات اقتصادية وتجارية وعسكرية وتكنولوجية وصناعية ومالية عديدة، وتسييره قوانين العولمة واقتصاد السوق والليبرالية بوجهيها المعتدل والمتوحش، وطغيان الرأسمالية، وأفول الاشتراكية، وعودة الدين أو ما سمي بالصحوة الدينية، وهيمنة وسائل الاتصال الحديثة ووسائل الإعلام المتطورة (أقمار صناعية، ستلايت، محطات تلفزة فضائية،إنترنيت، الهاتف المحمول الخ...).

الأحداث تتسارع يومياً والعالم يغلي بالحوادث والكوارث والحروب الإقليمية والمحلية والمآسي والمجاعات والمذابح وعمليات التطهير العرقي والإثني والديني والمذهبي لم تتوقف أو تنخفض،إلا أن الحدث الأهم وبلا جدال، والذي يعتبر نقطة الانطلاق لأي تحليل استراتيجي هو ما حدث في الحادي عشر من أيلول سنة ٢٠٠١ داخل الولايات المتحدة الأمريكية من هجمات إرهابية على نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا وراح ضحيتها أكثر من ٣٠٠٠ ضحية، وما ترتب على ذلك الحدث المأساوي من أحداث خطيرة كحربي أفغانستان والعراق وما تلاهما من كوارث وضحايا أبرياء، وممارسة الضغوط والتهديدات المسلطة على إيران وسورية ولبنان وكوريا الشمالية وما نجم عنها من تهديدات مضادة من جانب خصوم القوة الأعظم الذين تسميهم الإدارة الأمريكية بالإرهابيين وما ارتكبوه من هجمات في لندن ومدريد وعمان ومصر والعربية السعودية والرباط، وما يقومون به من عمليات إرهاب وتدمير وتخريب وقتل في العراق والصومال والسودان، وما يدور حالياً من مواجهات مسلحة في الشيشان وكشمير وغيرها من بؤر التوتر الساخنة. إن ما يجري لا يختلف عن كونه حرباً عالمية ولكن بأشكال غير تقليدية بدأت بوادرها منذ نهاية القرن الماضي إثر انتهاء الحرب العالمية الثالثة المسماة بالحرب الباردة في أعقاب حربين عالميتين ساخنتين ١٩١٤-١٩١٨ و ١٩٣٩-١٩٤٥، والتساؤل الذي يطرحه المرء اليوم هل نحن في حرب دائمة على سطح الكوكب؟ ومن هو العدو اليوم؟ وكيف وصلنا إلى هذه الحال؟ وما هي الرهانات والمخاطر والتداعيات التي ترتبت على ذلك المنعطف التاريخي الذي حدث عام ٢٠٠١ ؟

> أطاحت حرب أفغانستان بنظام طالبان وأرغمت القاعدة على العمل السري والأختباء تحت الأرض.

ومن الذي يمكن أن ينتصر أو يهزم ولماذا؟ كانت الحرب غير النظامية سابقاً من شأن المرتزقة الذين يغيرون ولاءاتهم ومعسكراتهم وتحالفاتهم وفق مصالحهم الشخصية. ولكن، ومنذ نشأة الدولة. الأمة التي كرستها الثورة الفرنسية، امتزجت الصراعات بالمسألة القومية والوطنية والتي أفلحت بحشد وتعبئة شعوباً بأكملها لخوضها. وكان قائد الثورة الفرنسية روبسبير قد صرح وهو محاطاً بمقاتليه المسلحين سنة ١٧٩٣ :" إن أعداؤنا يخوضون حرب الجيش وأنتم تخوضون حرب الشعب ". وقد شهد القرن التاسع عشر والقرن العشرون حروب الجيوش الضخمة والأساطيل حيث كان الرجال يتوجهون إلى جبهات القتال والنساء يقمن بأدوار الرجال لإسناد الجهد الحربي. وكانت الحروب تدور بين دول ومعارك على الحدود. هكذا كان حال الحروب العالمية التقليدية التي وقعت في الماضي. وعندما استدعى الأمر التعبئة العالمية لمحاربة ألمانيا النازية كان الجانب الأيديولوجي يأتي في المقام الثاني من حيث الأهمية. وإذا كان العالم لم يشهد سلاماً حقيقياً منذ سنة ١٩٤٥، أو أنه كان سلاماً مسلحاً بأسلحة الردع النووي وفق معادلة توازن الرعب، إلا أن الحرب بين الدول الكبرى أصبحت أمراً نادراً عدا استثناءات هنا وهناك، كحرب المالوين بين الأرجنتين وبريطانيا، والحرب الهندية الباكستانية، والحرب بين اليونان وتركيا، وبالطبع الحروب المتتالية بين العرب وإسرائيل، وهناك أيضاً الحرب بين العراق وإيران، والحرب بين المجموعة الدولية والعراق بسبب أزمة غزو الكويت من قبل قوات صدام حسين، وكانت كلها حروب محدودة جداً والتي وسمت أغلبها النصف الثاني من القرن المنصرم حيث يمكن القول أن المواجهة الأيديولوجية بين الشرق والغرب، بين الرأسمالية والشيوعية، بين الكتلة الاشتراكية والكتلة الغربية، هي التي تركت بصماتها ووسمت بطابعها تلك الحقبة المتميزة من تاريخ البشرية الحديث.

كان للحرب الباردة حدودها المتمثلة بالستار الحديدي مع الدول التي كانت مستعدة للمواجهة العسكرية لحماية هذا الجدار ومن تهاويه مما سيتيح لمعسكر الغرب التغلغل داخل أراضي المعسكر الخصم. كانت سياسة "الاحتواء" في الصراع الذي كان قائماً بين الشيوعية والرأسمالية أساسية لحماية المواقع مما يعني أن الحرب لم تغير طبيعتها جوهرياً في ذلك الوقت، بيد أن واقع الحال تغير جوهرياً اليوم في ما بات يعرف بالحرب ضد " الإرهاب" العالمي الذي ليس له مواقع ثابتة أو أرض محدودة إذ أن وسيلة الإرهاب الوحيدة هي العنف المسلح من دون صلة بدولة ما بالضرورة فالإرهاب بلا هوية ولا وجه لذلك لا توجد مظاهر الحرب الكلاسيكية كالتعبئة العامة وتهيئة اقتصاد الحرب وإعلان حالة الطوارئ أو غير ذلك من المظاهر الملموسة على أرض الواقع هناك فقط عناصر مسلحة تجوب الشوارع والأحياء السكنية والأماكن العامة مقابل ذلك وجود جنود مسلحين أو رجال أمن ونقاط سيطرة وتفتيش وحواجز ثابتة أو متنقلة تابعة للأنظمة القائمة

وإخضاع وسائل النقل البرية والبحرية والجوية لرقابة مشددة ومصادرة بعض الحريات العامة لكن مثل هذه الإجراءات لا تكفي لإشاعة الشعور بالأمان والحماية في حالة الحرب الإرهابية التي تجري على غرار حرب العصابات أو الكفاح المسلح والتي أصبحت بديلاً لهما حيث عرف البعض الإرهاب بأنه بمثابة سلاح الفقراء، المحرومين، الضعفاء أو المستضعفين، ووسيلة لمقارعة الدول العظمى.

أطاحت حرب أفغانستان بنظام طالبان وأرغمت القاعدة على العمل السري والأختباء تحت الأرض واعتقال وقتل الالاف من اتباعها في مختلف أنحاء العالم كما تم تفكيك خلايا سرية نائمة وإبطال مفعول عبوات ناسفة وسيارات مفخخة وتفجيرات كانت معدة ضد أهداف حيوية واستراتيجية ضد سفن راسية في مضيق جبل طارق ومحاولات استخدام مواد سامة في بريطانيا وفرنسا واسبانيا وإطلاق صاروخ أرض. جو من طراز ستينغر ضد طائرة مدنية في مطار هيثرو البريطاني وإسقاط طائرة على مبنى القنصلية الأمريكية في كراتشي وتفجيرات متعددة ضد سفارات غربية في بانكوك وبيروت وسينغافورة.كما تدعي واشنطن بأنها تمكنت من قتل واعتقال حوالي ثلثي من قادة القاعدة في أكبر عملية مطاردة الإنسان في تاريخ البشرية وأشهر هؤلاء القادة رمزي بن الشيبه الذي اعتقل في أيلول وعبد الرحيم النشيري الذي قتل في اكتوبر وأبو زبيدة في نوفمبر وخالد شيخ محمد في آذار ورضوان اسماعيل الدين المعروف بالحلبي في آب بينما قتل آخرون كقائد سنان الحارثي في اليمن في نوفمبر في افغانستان في ديسمبر .

قدر بروس هوفمان الخبير بالإرهاب من مؤسسة راند الأمريكية للبحوث عدد قتلى القاعدة بـ ٤٠٠٠ عنصر لكنه أشار إلى أنه تم استبدالهم بسرعة بمجرد تعرض البعض منهم للقتل أو الاعتقال فالقاعدة تعيد تنظيم نفسها باستمرار وبالرغم من تعرض المنظمة للإرهاق والضعف إلا أنها قادرة دوما على تجنيد عدد كبير من الأتباع والمتعاطفين ومواصلة استراتيجيتها.

منذ ايلول ٢٠٠١ غيرت القاعدة من تكتيكها وتبعثرت في أوسع مساحة ممكنة من الأرض وشجعت المجموعات المحلية على التحرك المستقل باسمها ونشر أيديولوجيتها وتكنيكها عبر الانترنيت فقد تم استبدال قادة ميدانيين وكوادر قيادية اختفت بكوادر وسيطة من الدرجة الأدنى أقبل خبرة ومراساً بيد أنهم قادرون على أخذ زمام المبادرة وقيادة العمليات كما صرح نائب الأميرال لويل جاكوبي في نهاية ٢٠٠٤ بصفته مديرا لوكالة الاستخبارات العسكرية التابعة للبنتاغون. بينما علق مختتما الخبير بالإرهاب والعميل السابق في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية سي آي أيه مارك ساغمان والذي درس باسهاب وتمعن أساليب القاعدة كخبير نفسي ودرس خلايا القاعدة في أوروبا عقب في سلسلة من المحاضرات في عدد من الوكالات الحكومية الأمريكية قائلا: قد لاتحدث في الأمد القريب هجمات استعراضية هائلة من طراز هجمات أيلول ٢٠٠١ بل المزيد من الهجمات من نوع ما حدث في مدريد في ولندن وشرم الشيخ وبالأخص في أماكن أخرى في أوروبا. لاينبغي أن يغيب عن أبصارنا أن القاعدة تعمل بسرعتين فمن جهة تقدم الدعم التقني والمالي للجماعات الإسلاموية المتطرفة لمهاجمة الغربيين وحكومات الدول الإسلامية التي يعتبرونها عميلة وخائنة، وفي نفس الوقت التحضير سرا وبتأني وبطء لعمليات كبرى استعراضية تحدث دويا إعلاميا كبيرا وتوقع الكثير من الضحايا ضد الولايات المتحدة الأمريكية أساسا تفصل بينها بضعة سنوات لازمة للإعداد الدقيق والتنظيم المتقن كما يشير دانيل بينجامان المسؤول عن مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي في عهد الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون ويعمل اليوم كباحث في مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية.منذ أربعة أعوام والتهديد الإرهابي لم ينخفض بل تفاقم حسب تقديرات مركز مكافحة الإرهاب الحديث العهد في الولايات المتحدة الأمريكية الذي أشار ألى أن العمليات الإرهابية تضاعفت ثلاث مرات سنة ٢٠٠٤ ووصلت إلى ٦٥٥ عملية مقابل ١٧٥ عملية سنة ٢٠٠٣ أدت إلى قتل ١٩٠٧ وجرح أكثر من ٧٠٠٠ ضحية، وأيضاً وقع ١٩٨ اعتداء إرهابي في العراق سنة ٢٠٠٤ أي تسع مرات أكثر مما وقع سنة ٢٠٠٣ لذلك حاولت الإدارة الأمريكية إخفاء هذه الحقائق والمعطيات الجديدة لأنها سوف تولد لدى المواطن شعورا بالهزيمة في معركة الإرهاب كما يؤكد لاري جونسون نائب مدير سابق في شعبة مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية الأمريكية.

> كان لابد من إعادة تنظيم وتأطير وتنقيح وتعديل التعليم الديني والتربية الدينية والممارسات العملية.

مازال للقاعدة نفس الأهداف السياسية التي تتلخص بتوسيع رقعة الصراع ونشر الجهاد ضد الغرب وطرد الكفار من الشرق الأوسط وإصابة الهدف الحقيقي الذي هو في نهاية المطاف الأنظمة العربية والإسلامية الموالية للغرب التي تنوي إطاحتها في الباكستان والعربية السعودية ومصر والنظام العراقي الحالي الذي جاء في أعقاب سقوط نظام صدام حسين الديكتاتوري. فغزو العراق قدم فرصة لاتقدر بثمن للإرهاب الدولي ونفس جديدا لتنظيم القاعدة الذي تعرض لضربات موجعة في أفغانستان وذلك لسببين : فلقد اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية في أوقات حاسمة وحساسة إلى سحب جزء كبير من إمكاناتها ووسائلها العسكرية من جنوب شرق آسيا سنة ٢٠٠٢ مما أتاح للقاعدة فرصة تكوين ملاذات جديدة في المناطق المتاخمة لباكستان. فلقد تم نقل وسحب ٧٠ إلى ٨٠ بالمائة من التجهيزات والقوات الخاصة والمخابرات إلى العراق لإطاحة صدام حسين وكان ذلك من الأسباب التي مكنت أسامة بن لادن البقاء على الحياة والمكوث في المنطقة وإعادة تنظيم وتجميع قوى منظمته القاعدة كما تعتقد جولييت كاييم العضوة في اللجنة القومية للإرهاب وعملت في وزارة العدل في عهد كلينتون ودرست مادة مكافحة الإرهاب في جامعة هارفرد.

وبالتالي فإن عملية غزو العراق وفرت للقاعدة إمكانية تحشيد وتجنيد وكسب عناصر جديدة متحمسة ومندفعة لم تكن تأمل بها قبل الغزو إلى جانب توفير أرض للتدريب وقاعدة جديدة للانطلاق. نشرت دراسة في شهر آذار ٢٠٠٥ من قبل مركز الأبحاث الشاملة للشؤون الدولية الإسرائيلي الذي تابع مسار ١٥٤ عربيا وأجنبيا قتلوا في العراق منهم ٣٣ قتلوا في عمليات انتحارية تقول أن الغالبية الساحقة من هؤلاء لم يسبق له أن اشترك قبل ذلك في أي نشاط إرهابي قبل وصولهم إلى العراق.

ومن هنا، وعلى عكس ما أشيع بأن القاعدة تنظيم شبحي حلت محله مجموعة من الخلايا الإرهابية الطوعية فهذا التنظيم مازال يسيطر وينظم وينسق العمليات ولديه دور عملياتي ويقدم مساعدة تقنية كما أثبتت التحقيقات تورط هذا التنظيم بجميع العمليات الإرهابية الكبرى في السنتين الماضيتين في العربية السعودية وقطر ومصر واسبانيا وبريطانيا بالرغم من كونه أقل تنظيما ومركزية بعد أن فقد ملاذه الأفغاني ودعم نظام طلبان المنهار وبالتالي تغيير وسائل الاتصال إلا أن أسامة بن لادن ونائبه أيمن الظواهري مازالا يقودان التنظيم ويوصلان الرسائل والتوجيهات والأوامر لأتباعهما في كل مكان لاسيما في العراق وفي أوروبا.

نشر المدعو أبو مصعب الزرقاوي في بداية عام ٢٠٠٤ نصا من ١٧ صفحة يصفته الرجل الأول لتنظيم القاعدة والجهاد في بلاد الرافدين في العراق موجها لأسامة بن لادن يطلب منه دعم ومساندة المتمردين والعناصر المسلحة وتم العثور على هذا النص مسجلا عل الدسك الصلب لجهاز كومبيوتر محمول تابع للزرقاوي وتم إرساله عبر البريد الالكتروني. يقول ميكائيل سويتنام من معهد بوتوماك للأبحاث الإستراتيجية : هناك خبرة إرهابية قدمت للخلايا المحلية من قبل أشخاص تدربوا واكتسبوا خبرات قتالية وعملياتية في معسكرات متوزعة في كل مكان وتوجد بصماتهم على جميع العمليات والهجمات التي نفذت في السنوات الأخيرة فهذا القلب التنظيمي والنواة المركزية لهذا التنظيم العالمي قدم التكنيك والتنسيق والنصح والتوجيه ومن الصعب اختراقه حيث سهلت تكنولوجيا الانترنيت على نحو كبير نشاطات الشبكات المرتبطة به وإعطاء الضوء لتنفيذ عمليات كانت معدة منذ زمن طويل ومبرمجة مسبقا.

إن شيوع واتساع نطاق العمليات الانتحارية وتزايد عدد المرشحين للشهادة في الشرق الأوسط وأوروبا يعزز مخاوف وقلق خبراء الإرهاب بالضد مما تبديه الأنظمة الرسمية من تطمينات في هذا المجال. منذ الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ وكرد على الهجمات التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية في عقر دارها تشن إدارة بوش حربا لاهوادة فيها ضد ما تسميه بالإرهاب العالمي دون أن تنجح في تقديم تعريف علمي واضح ودقيق لمفهوم الإرهاب. فليس مصادفة بعد سلسلة الهجمات الإرهابية الأخيرة التي وقعت في لندن وشرم الشيخ أن ترد الإدارة الأمريكية في هذه المعركة بسلاح المصطلحات والمفاهيم وقامت بتغيير تسمية استراتيجيتها إلى " المعركة العالمية ضد التطرف العنيف" وهي تسمية فضفاضة وأشمل من التسمية السابقة التي كانت تعرف " بالحرب الشاملة لمكافحة الإرهاب" فهل هذا يدل على عجز أم تغيير في التوجه الاستراتيجي الأمريكي بغية عدم تجاهل البعد السياسي والأيديولوجي للصراع القائم ؟ يبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية باتت واعية لجميع أبعاد هذه المواجهة المدمرة والخطيرة فالرد العسكري الذي أعلنته أمريكا على هجمات الحادي عشر من ايلول ٢٠٠١ قد أعطى نتيجة محدودة توجت بنصر عسكري تقليدي تجسد بإطاحة نظامي طالبان في افغانستان والبعث في العراق لكن الرد العسكري لم يؤد إلى إضعاف أنصار الحرب المقدسة ضد الوجود العسكري الأمريكي في العالمين العربي والإسلامي.فحرب أفغانستان أزاحت طالبان من الحكم بيد أن زعيمي القاعدة وطالبان الملا عمر وأسامة بن لادن فرا إلى المناطق المتاخمة للحدود الباكستانية في وزير ستان حيث القبائل الموالية والمخلصة لهما جاهزة لحمايتهما ومواصلة نشاطهما الإرهابي من هناك بإسم الإسلام. ولكن أي إسلام؟

الإسلام بنظر الإستراتيجيين الغربيين ليس سوى ثيوقراطية توتاليتارية شمولية، وهو دين سماوي وتوحيدي بنظر أتباعه إلا أنه لايفرق بين الزمني أو الدنيوي والروحي أو بين اللاهوتي والناسوتي، ويعتقد الغربيون أن زعماء هذا الدين يريدون تطبيق القانون الإسلامي أو الشريعة الإسلامية على الجميع وفي جميع نواحي الحياة بلا استثناء علاوة على أن الإسلام دين تبشيري جاء لكل الناس في الأرض ومن مهماته الجوهرية الانتشار بكل السبل والسعي لإقناع الإنسانية جمعاء بصحة طروحاته ومحاول إقناع البشرية باعتناق الإسلام سواء بالنقاش والمجادلة بالتي هي أحسن أو بالقوة إن لزم الأمر بالرغم من وجود آية لا إكراه في الدين. وقد أشار المفكر الأمريكي المعروف وصاحب كتاب " صدام الحضارات" الشهير صاموئيل هينتنغتون إلى أن ": هناك بعض الغربيين يؤيدون فكرة أنه لاتوجد للغرب مشكلة مع الإسلام بل فقط مع المتعصبين والمتشددين والمتطرفين الإسلامويين من سلفيين وأصوليين ممن يتبنون العنف والإرهاب في تعاملهم مع الآخر، والحال أن تجربة ما يزيد على الأربعة عشر قرناً من التاريخ المشترك أظهرت وأثبتت عكس هذا التصور. فالعلاقات بين الإسلام من جهة والمسيحية بكل أشكالها، الأورثوذكسية الشرقية والكاثوليكية والبروتيستانتية الغربية، كانت دائماً متأزمة ومضطربة وكل طرف يعتبر هذا الآخر المغاير والخصم بالنسبة له. إن تفاقم هذا الاستقطاب والاحتقان الديني وتصاعد ظاهرة التصادم بين الأديان لاسيما في بؤر متوترة وقابلة للانفجار كما في الهند والباكستان وأندونيسيا والعراق ومصر ولبنان وغيرها قد يقود في حالات معينة من الجنون البشري إلى تفجير الحرب العالمية الثالثة أو الرابعة إذا اعتبرنا الحرب الباردة هي الحرب العالمية الثالثة، وحيث سيكون ثقل الإسلام كبيراً إذ يتواجد أكثر من مليار ومائتي ألف مسلم موزعين في كافة قارات الأرض وأغلبهم مستعدون للذود عن دينهم ومعتقداتهم إذا شعروا وتأكدوا أنهم معرضون مع دينهم لخطر الإبادة.

الدين الإسلامي كما يفهمه الغربيون ليس آلة للعقائد والشعائر والعبادات الدينية فحسب ولايكتفي بالجانب الروحي بل يتدخل في كافة شؤون الحياة للمؤمنين به وينظم الحقوق والواجبات في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والصحية والأخلاقية والأحوال المدنية حيث حددت الشريعة وصاغت كافة التفاصيل بدقة متناهية وتحولت إلى قوانين ودستور يقود الحياة بحكم كونها قوانين مستمدة من القرآن والسنة. يشير مفكرون ومستشرقون غربيون متخصصون بالإسلام مثل مكسيم رودنسون ومنتغمري وات وارنست رينان وجيل كيبيل وبيرنارد لويس إلى أن هذا التشخيص قد يكون صحيحاً ودقيقاً في السنوات الأولى من عمر الرسالة المحمدية ولكن، وعلى مدى الغزوات أو الفتوحات الإسلامية، برزت مشكلة تأقلم وتكيف الشريعة الإسلامية مع تقاليد وثقافات شعوب وحضارات مختلفة ومتنوعة تختلف جذرياً مع عادات وتقاليد ومثل القبائل البدوية القاطنة في شبه الجزيرة العربية التي كانت مهد الديانة الإسلامية ونقطة انطلاقها إلى العالم الخارجي.

> استيقظ الغرب فجأة من سبات عميق على هول الصدمة التي أحدثتها تفجيرات الحادي عشر من أيلول.

كان لابد من إعادة تنظيم وتأطير وتنقيح وتعديل التعليم الديني والتربية الدينية والممارسات العملية ولكن دائماً بما يتوافق مع القرآن والسنة فتصدى علماء الدين والفقهاء لهذه المهمة وأسسوا مدارس فقهية وفكرية إسلامية متنوعة اتخذت شكل المذاهب والطوائف وأعدوا القضاة الذين كلفوا بتطبيق قوانين الشريعة وتبلور ما عرف فيما بعد بالفقه الإسلامي الثيولوجيا وهو علم بشري وليس ربانياً أو سماوياً أوجده العلماء لإكمال وتوضيح النصوص الأساسية حتى تداخلت مفاهيم الفقه والشريعة مما أدى إلى ظهور مسألة التفسير والتأويل للنصوص التأسيسية وبالتالي نشوء الحاجة إلى الاجتهاد. ومرة أخرى فرض رجال الدين والعلماء أنفسهم باعتبارهم الوحيدين المؤهلين للقيام بهذه المهمة وتقديم التفسير والتأويل " الرسمي" للنصوص المقدسة التي يمنع الخروج عنها أو تجاوزها ولم يعد يسمح بأية تفسيرات أو تاويلات غيرها وأعتبروا أن إجماع الأمة يرسو عليها ومنحوا لأنفسهم حق التصرف والتعريف واختيار المنهج الملائم لهم لإجراء عمليات التفسير والتأويل وإصدار الفتاوي. ومن هنا أصبحت قضية الاجتهاد العصب الحي والحساس الذي يتحكم بقابلية أو عدم قابلية الإسلام على التأقلم والتكيف مع متطلبات العصر ومعطيات الحداثة والعصرنة والتقدم التقني أو التكنولوجي والعلمي المتسارع في أيامنا هذه مع نشوء نظريات علمية في التطور والبيولوجيا والفيزياء النظرية والفلكية والكونية والكيمياء والهندسة الوراثية وعلم الجينات والاستنساخ الحيواني والنباتي والبشري والانفورماتيك أو علم الحاسوب وعلم الفضاء الخ.

استيقظ الغرب فجأة من سبات عميق على هول الصدمة التي أحدثتها تفجيرات الحادي عشر من أيلول سنة ٢٠٠١ وذلك بفضل الآلة الإعلامية الجبارة التي إتقن استخدامها وتطويعها لأغراضه وخططه الاستراتيجية وحروبه النفسية والحقيقية الميدانية. لقد برز أمام العالم الغربي مارد أسود كالإعصار المدمر الذي يجرف كل شيء أمامه أطلقوا عليه إسم " الإسلام" وقدمته وسائل الإعلام على أنه العدو الجديد والأخطر الذي حل محل الشيوعية العدو السابق " للعالم الحر". فلا يكاد يمر يوم دون أن تتعرض الصحافة المكتوبة ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية والكتب ودور النشر ومراكز الأبحاث والتحليل إلى أعمال عنف واضطرابات ومواجهات مسلحة وعمليات انتحارية وتفجيرات في العالم الإسلامي وفي مدن الغرب الرئيسية وكذلك في الضواحي البائسة والمهملة المحيطة بمدن وعواصم الغرب، ثم تلقي مسؤولية وتبعات تلك النشاطات الإرهابية العنيفة على عاتق الإسلام والأقليات الإسلامية المكدسة في تلك الضواحي الخطيرة والحساسة التي لايتجرأ رجال البوليس على دخولها والتي تسير وفق أوامر وتوجيهات أئمة إسلامويين أجانب يحثون على الجهاد في مواعظهم وخطبهم النارية داخل الأقبية التي حولت إلى مساجد لبث الحقد والكراهية ضد الغرب والمجتمعات الغربية الكافرة والمتحللة من القيم والأخلاق كما يقول أئمة المساجد ويحثون الشباب الفرنسي من أصل مسلم خاصة من الجيلين الثاني والثالث من أبناء المهاجرين المسلمين على الانخراط في الحرب المقدسة ضد الكفر وتأدية مناسك الحج ثم استثمار هذه الخطوة لإرسالهم من هناك أي من مكة إلى معسكرات للتدريب على العمليات الإرهابية وصنع المتفجرات والتدرب على كافة أنواع الأسلحة في أفغانستان والعراق والصومال والشيشان والكوسوفو، وأيضاً تثقيفهم وتعبئتهم ضد النساء وإرغامهن على ارتداء الحجاب بجميع أنواعه (من الفولار البسيط أو غطاء الرأس إلى الخمار والبركة الأفغانية مروراً بالعباءة السوداء والتشادور الإيراني). استغل الإسلامويون حالة الاحتقان والتوتر ودفعوا باتجاه إشعال أول مواجهة جادة عملية على أرض الواقع سميت بـ " معركة الفولار" في فرنسا سنة ١٩٨٩ ووضعت المجتمع الفرنسي برمته على حافة الإنقسام والانشقاق الداخلي بين مؤيد ومعارض لقرار منع لبس الحجاب في المدارس الفرنسية العامة العلمانية التابعة للدولة وليس مدارس القطاع الخاص باعتبار الحجاب علامة دينية بارزة وملموسة وعيانية اعتبر خصوم هذا القرار أنه يجسد ممارسة عنصرية مخالفة للقانون والدستور الفرنسيين ضد العرب والمسلمين وتمييزا بحقهم لمصلحة اليهود والمسيحيين الذين لم يمنعهم قرار مماثل آنذاك من لبس (الكيبا) اليهودية أو غطاء الرأس أو الصليب ووصموا ذلك بأنه تعصب وتزمت أو تشدد علماني بغيض لايقل خطورة وتخلفاً أو تقهقراً من مثيله التطرف والتعصب والتزمت أو التشدد الديني. بعد مضي مالا يقل عن الخمسة عشر عاماً على ذلك الحدث الذي استحوذ على اهتمام وسائل الإعلام، ظهرت على السطح ما يشبه التجمعات القومية . العرقية . الإثنية . الدينية المنطوية على نفسها والمنفصلة عن المجتمع الفرنسي وتقاوم الاندماج به والتكيف معه ناهيك عن الانصهار به، وتعيش في ما يشبه الغيتوهات التي كان يقطنها اليهود في سنوات ما قبل وفي أثناء الحرب العالمية الثانية. وفي نفس الوقت تفاقمت الممارسات العنصرية ضد هذه التجمعات السكنية وأبناؤها وتهميش وإقصاء الآخر " العربي. المسلم" وعدم الثقة به ومنعه من الحصول على العمل والسكن اللائق. وتنامى الخوف من الإسلام أو ما عرف بـ " رهاب الإسلام" باعتبار أن الإسلام يمثل تهديداً خطيراً على الحضارة والقيم الغربيين وأن أتباع هذا الدين يشنون حرباً " صليبية مضادة" وعالمية ضد الديموقراطية وقيم التسامح والانفتاح والحريات الشخصية وحريات الاعتقاد وضد انعتاق وتحرر المرأة. ناورت وسائل الإعلام لإظهار العالم الغربي وكأنه محاصر بالإسلام والمسلمين ومهدداً من الداخل بطابور خامس من المسلمين الذي يمنحون ولائهم للعالم الإسلامي على حساب الدول التي يقيمون ويعيشون فيها في الغرب. وقد استغلت نفس وسائل الإعلام أحداثاً وقعت في أنحاء متفرقة من العالم لتكريس هذا الشعور بالتطويق والحصار الإسلامي وهي أحداث أتسمت بدرجة كبيرة من العنف والدموية والقتل الجماعي والتفجيرات المنظمة بدم بارد ضد المدنيين الأبرياء في الأماكن العامة كمحطات القطار والسكك الحديد وقطارات الأنفاق الميترو تحت الأرض والساحات العامة والفنادق والحانات والبارات والنوادي الليلية والمطاعم والحافلات وقد ألصقت كل تلك الحوادث الإرهابية بالإسلام ونفذت بإسمه علاوة على مجازر وحشية ارتكبها الإسلامويون التكفيريون والسلفيون الجزائريون الذين عرفوا بـ " الأفغان العرب" ضد أبناء شعبهم على مدى أكثر من عقد من الزمن منذ العام ١٩٩٢ وعمليات الإعدام البشعة التي تمت بإسم الشريعة في السودان وأفغانستان وإيران في بدايات الثورة في أوائل الثمانينات من القرن الماضي وقمع واضطهاد وقتل النساء عل يد الطالبان في أفغانستان وتفجيرات بالي والباكستان ونيروبي والرياض والرباط وشرم الشيخ ومدريد ولندن وخطف وقتل الصحفيين والأجانب أو أخذهم رهائن على يد العصابات وقطاع الطرق الذين يقومون بتلك الأعمال المشينة بإسم الإسلام وفوق كل ذلك أحداث الحادي عشر من أيلول والتوترات القائمة مع بعض الدول في العالم الإسلامي كإيران وسورية والعراق والباكستان والسودان. شعر الغربيون من جراء ذلك بأنه يتعين عليهم أن يصمدوا ويستعدوا ضد هجمة إرهابية دولية ذات صبغة إسلاموية تحاك ضدهم في الخفاء بعد أن ظهرت طلائعها التي ذكرناها أعلاه، وتنطلق تلك الهجمة من تلك البلدان التي تحوم حولها الاتهامات والشبهات بأنها ترعى الإرهاب الإسلاموي وتأوي الإرهابيين وتسلحهم وتدربهم وتمولهم وتشك الدول الغربية بأنظمة تلك الدول " الإسلامية" بأنها تحتضن مجموعات جهنمية متوحشة وعنيفة جداً من أمثال القاعدة والجهاد الإسلامي والجماعات الإسلامية المسلحة بقيادة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري والزرقاوي وأمثالهم من زعماء القوى والحركات الظلامية التكفيرية التي تحقد على الغرب وقيمه الأخلاقية وأنظمته وقوانينه. ولدى تلك القوى الظلامية رؤية سوداوية للعالم كما لديها مشروعها السياسي ذي النزعة التوتاليتارية الشمولية التي أطلق عليها المفكر الأمريكي المعادي للإسلام برنارد لويس صفة " الفاشية الخضراء".

> والحال أن التطرف والتزمت والتشدد والتعصب ليس حكراً على الإسلام بل هو موجود في جميع الأديان السماوية وغير السماوية.

والحال أن التطرف والتزمت والتشدد والتعصب ليس حكراً على الإسلام بل هو موجود في جميع الأديان السماوية وغير السماوية وسنعرض للفكر الأصولي أو المتعصب والمتزمت عند باقي الأديان في دراسة لاحقة، ولكن لماذا التركيز على الإسلام فقط هل لأنه غير محمي ولايملك جماعتا ضغط ونفوذ " لوبيات" مثل التي تدعم اليهود والمسيحيين؟ مع الإسلام بات من السهل ترهيب أو إرعاب الناس بالإرهاب الإسلاموي بفضل عدة شواهد وأمثلة ملموسة تناقلتها وسائل الإعلام وركزت عليها ولاتحتاج لإثبات وغير قابلة للدحض كما تبدو لأول وهلة في الظاهر لأن وسائل الإعلام عزتها بديهياً للإسلام واعتبرته المسؤول عنها فلولا الإسلام لما كان هناك إسلامويون ولولا الإسلامويين لما كان هناك الإرهاب الإسلاموي هذه هي المعادلة التي يستند إليها مروجو هذه النزعة. المتزمتون والمتعصبون في الطرف الآخر يغذون فكرة المواجهة الحتمية التي لايمكن تفاديها بين الإسلام والغرب وبالتالي من صميم مصلحتهم تحويل هذا الدين إلى مصدر للرعب والتدمير على نطاق الكوكب كأنه الوباء الذي ينتشر مع الهواء أو بالاتصال والتماس كما هو حال الأوبئة كالطاعون والكوليرا والإيدز أو السيدا والسرطان والملاريا والتيفوئيد وغيرها من الأمراض الفتاكة التي عانت منها البشرية لقرون طويلة. المشكلة تكمن في أن الغربيين متيقنين من أن المتعصبين والمتشددين أو المتزمتين الإسلامويين التكفيريين الذ